

## الاحتلال النورماني لمدينة طرابلس من الفترة (541-553 هـ / 1146-1158م)

أسماء موسى علي زايد

قسم التاريخ، كلية الآداب، جامعة بني وليد، بني وليد، ليبيا.

البريد الإلكتروني: [asmamusazaid@gmail.com](mailto:asmamusazaid@gmail.com)

### The Norman occupation of the city of Tripoli from the period (541-553 AH / 1146-1158 AD) (Motives and Results)

Dr. Asmaa Musa Ali Zayed

Department of History, College of Arts, Bani Walid University

تاريخ النشر: 2023-09-20

تاريخ القبول: 2023-09-14

تاريخ الاستلام: 2023-08-14

#### الملخص

بعد أن نجح النورمان سنة 484 هـ / 1091 م في الاستيلاء على جزيرة صقلية ، وإنهاء الوجود الإسلامي بها ، الذي استمر لأكثر من قرنين ونصف من الزمان ، وجدوا أن الفرصة سانحة للتوسع نحو سواحل إفريقية التي كانت بدورها تعاني من ضعف واضطراب في الأوضاع الداخلية ، فإمارة بني زيري تقلصت مناطق نفوذها ، وأصبحت معظمها واقعة تحت سيطرة قبائل الأعراب من بني هلال وبني سليم ، كما أن الدولة الفاطمية التي تنافس الزيريين في السيطرة على إفريقية ، كانت هي الأخرى منشغلة بأمورها الداخلية وبمحاربة الصليبيين ببلاد الشام ؛ أما بلاد المغرب فكانت تعاني من التصارع ما بين المرابطين والموحدين الذين ظهوروا كقوة جديدة منافسة لهم على مسرح الأحداث السياسية ببلاد المغرب الأقصى .

وفي ظل تلك الظروف قام النورمان بشن ثلاث حملات عسكرية على مدينة طرابلس ؛ الأولى كانت سنة 537 هـ / 1142 م ، وانتهت بالفشل بفضل مساندة أعراب الدواخل لأهل المدينة في صد الهجوم ، والحملة الثانية سنة 539 هـ / 1144 م كانت بقصد السلب والنهب ثم انسحبت ؛ وبعد أن حلت مجاعة سنة 540 هـ / 1145 م وما تعرضت له المدينة من نزوح سكاني ، وحدوث اضطرابات داخلية بها ، ضد جند بني مطروح وإخراجهم من المدينة ، وجد النورمان الفرصة سانحة للسيطرة عليها بحملة ثالثة سنة 541 هـ / 1146 م واستمرت السيطرة عليها حتى سنة 553 هـ / 1158 م حتى تمكن أهلها بمساندة من أعراب بني هلال وبني سليم ، تحرير مدينتهم وإرجاع ابن مطروح واليا عليها .

يتناول البحث ظهور النورمان كقوة جديدة في البحر المتوسط، واستيلائهم على جزيرة صقلية، ودوافع غزوهم لساحل إفريقية ولاسيما مدينة طرابلس، وكيف ساعدت الأوضاع الداخلية المضطربة في إنجاح المشروع النورماني والسيطرة على المدينة لفترة من الزمن، وكيف كانت مدينة طرابلس تحت حكمهم، والنتائج التي ترتبت عليه؟ .

الكلمات الدالة: الاحتلال، سواحل إفريقية، مدينة طرابلس، النورماني.

**Abstract:**

After the Normans succeeded in seizing the Island of Sicily and ending the Islamic presence there, which lasted for more than two and a half centuries, they found an opportunity to expand towards the coasts of Africa, which in turn was suffering from weakness and turmoil in the internal situation. The Emirate of Bani Ziri shrank its spheres of influence, and most of it became under the control of the Arab tribes of Bani Hilal and Bani Sulaym, and the Fatimid state, which competed with the Ziri in controlling Ifriqiya, was also preoccupied with its internal affairs and fighting the Crusaders in the Levant; As for the countries of the Maghreb, they were suffering from the struggle between the Almoravids and the Almohads, who emerged as a new force competing with them on the political scene in the countries of the Far Maghreb.

Under these circumstances, the Normans launched three military campaigns on the city of Tripoli; The first was in the year 537 AH / 1142 AD, and ended in failure thanks to the support of the tribes of the interior to the people of Medina in repelling the attack, and the second campaign in the year 539 AH / 1144 AD was with the intention of looting and looting and then withdrew; After a famine befell the year 540 AH / 1145 AD and the city was subjected to a population exodus, and the occurrence of internal disturbances in it, against the Khazarun people and their expulsion from the city, the Normans found an opportunity to control it with a third campaign in the year 541 AH / 1146 AD. They continued to control it until the year 1146 AD. 553 AH / 1158 AD, when its people, with the support of the Al-Dakhil tribes, managed to liberate their city.

The research deals with the emergence of the Normans as a new power in the Mediterranean, their seizure of the island of Sicily, the motives for their conquest of the African coast, especially the city of Tripoli, and how the turbulent internal conditions helped the success of the Norman project, and control of the city in a period in time, and how the city of Tripoli was under their rule, and the results that resulted on him?

**Keywords:** African coasts, **Norman**, occupation, Tripoli.

**تمهيد:**

ظهر النورمان كأول ظهور لهم بشمال أوروبا حيث موطنهم الأصلي، ثم انتقلوا بعد ضعف الامبراطورية الرومانية كغيرهم من الشعب الجرمانية، واستقر بهم المقام بشمال فرنسا بمقاطعة نورماندي التي لاتزال تحمل اسمهم لحد الآن، وبعدها انتقل جزء منهم إلى جنوبي إيطاليا ، حيث أقاموا إمارات إقطاعية على غرار ما وُجد بأوروبا خلال العصور الوسطى (1)

ووجودهم بجنوب إيطاليا جعلهم بمواجهة جزيرة صقلية التي كانت تحت الحكم الإسلامي منذ أن فتحها بنو الأغلبي ، في عهد الأمير زيادة الله الأول ( 201 - 223 هـ ) بقيادة أسد بن الفرات سنة 211 هـ ، وظلت كذلك لأكثر من قرنين ونصف من الزمان ( 212 - 484 هـ ) ، غير أن القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي ، شهد بداية الفوضى والمنازعات الجانبية بين الأمراء هناك ، بعد تقسيم الجزيرة لمجموعة من الإمارات أو المشيخات المتخاصمة ، كما حدث ببلاد الأندلس خلال فترة ملوك الطوائف ، وقامت بينهم الحروب

ولأسيماً بين محمد بن إبراهيم المعروف بابن الثمنه صاحب سوقوسة ، وعلي بن نغمة المعروف بابن الحواس صاحب قصر ياته ، وجرجنت ، والقصر الجديد ، مما جَزَأَ الجزيرة إلى أمارتين متحاربتين فيما بينهما ؛ واستعانوا بالنورمان ضدَّ بعضهم البعض ، مما مَكَّنَهُم من الاستيلاء على الجزيرة وفَرَضَ سيادتهم الكاملة عليها سنة 484 هـ ، وإنهاء الوجود الإسلامي بها<sup>(2)</sup> .

### الأوضاع السياسية ببلاد إفريقية :

شهدت بلاد المغرب بصفة عامة حالة من الفوضى والانقسام السياسي ، مما أدَّى إلى قيام دويلات صغيرة ، حيث انفصل بني حماد عن الدولة الزييرية ، واستقلوا بالمغرب الأوسط حدود سنة 395 هـ ، في حين سبقهم بنو خزرون ، واستقلوا بمدينة طرابلس حدود سنة 391 هـ ، وأقاموا كيان سياسي بها مستغلين الصراع السياسي ، الدائر بين بنو زييري ، والدولة الفاطمية بمصر ، للسيطرة على هذه المنطقة فكانت بينهم ، وبين الصنهاجيين وقائع كثيرة ، وتَرَافَقَ مع ذلك هجرة قبائل الأعراب من بني هلال وبني سليم ، الذين دخلوا البلاد مع منتصف القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي ، كَرَدَ فِعْلٌ من قِبَلِ الفاطميين على انفصال بني زييري عنهم ، وإعلانهم الولاء للخلافة العباسية ببغداد ، مما ضعضع نفوذ الدولة الزييرية الصنهاجية ، وجعلها غير قادرة على حماية البلاد من الداخل ، وغير قادرة على الاحتفاظ بأسطول بحري قوي يحمي شواطئها من ناحية أخرى .

### علاقة النورمان بالدولة الزييرية :

نَظَرًا لانشغال الطرفين بالمشاكل الداخلية التي كانت تواجههما ، فالدولة الزييرية كانت تعاني من الضعف بعد مواجهاتها مع الدولة الفاطمية من جانب ، والدولة الحمادية من جانب آخر ، في حين اسْتَقَلَّ بنو جامع الهلالين بمدينة قابس ، ولم يَعدْ نفوذ الزيريين يَتَّعَدَى المهديّة أو المنصورة ، وبعض المناطق الساحلية القريبة منها ، مما أدَّى إلى تحويل إفريقية ، ومنها طرابلس إلى مشيخات بدوية يسيطر عليها النظام القبلي ، ولا يجمع بينها أى نوع من التنظيم الذى كان يمكن أن يُوحِّد جهودها للوقوف في وجه خطر خارجي يتهدها جميعاً<sup>(3)</sup> .

تَغَيَّرَ موازين القوى بغرب البحر المتوسط ، جعلت من السيادة البحرية بيد النورمان الذين وصل نشاطهم القرصني إلى سواحل بلاد المغرب ، وتدخلوا في الصراع الدائر بين أمراء إفريقية وساعدوا بعض حكامها ضد البعض الآخر ، إلا أن محاولاتهم للسيطرة على موطن قدم بالساحل المغربي في بداية أمرها باءت جميعها بالفشل بسبب قوة الدولة الزييرية ، وتحالفها مع قبائل الأعراب في مواجهة النورمان<sup>(4)</sup> .

ولكن مع استمرار المنافسات بين بني زيري ، ومن استقل عنهم من عمالهم ، وما اسفر عنه الوضع من تدخل مباشر للنورمان بالشؤون الداخلية لإفريقية ، زادت الأمر سوءً ولاسيما بين صاحب المهديّة علي بن يحيى ، ورافع بن مكي المستقل بحكم مدينة قابس ، وسعى كلاهما لاحتكار التجارة البحرية ، مما دفع برافع إلى الاستجداد بحاكم صقلية رَجَّار الثاني ، وطلب منه المساعدة ، وبالفعل وصل أسطول النورمان المكون من ثلاثمائة مركب حُمِلَ على ظهرها ثلاثون ألف راكب وزهاء ألف فارس بقيادة جرجي الأنطاكي<sup>(5)</sup> وعبد الرحمن بن عبد العزيز المسمّى في المصادر المسيحية كريستو رولوس إلى ساحل المهديّة سنة 517 هـ 1123 م ، واستقبل من قبل رافع ، في حين وصل أسطول المهديّة بقيادة الحسن بن علي ، وهزمهم ، وغنم قطع من أسطول رَجَّار ، وقتل أعداد من رجاله ، ومنذ ذلك الحين تواصلت الحملات النورمانية للسيطرة على المحارس ، والحصون ، والثغور الساحلية ، وكانت جزيرة جربة أولى المناطق التي واجهت اعتداءات الأسطول النورماني ، وأواخر سنة 529 هـ وأوائل سنة 530 هـ 1135 م ، ولم يتمكن أهلها من طرد النورمان حتى سنة 548 هـ ، إلا إنهم عادوا إليها بنفس السنة ، وسيطروا عليها من جديد ، وأعقب ذلك احتلالهم جزيرة قرقنه القريبة من المهديّة التي تقاعس الزيريين في الدفاع عنها<sup>(6)</sup> ، كما احتلوا سوسة وصفاقس سنة 543 هـ 1148 م ، قبل أن تسقط المهديّة بذات السنة ، بعد أن سلّمها لهم الحسن بن علي ، آخر أمراء الدولة الزيرية حَقْنًا للدماء<sup>(7)</sup> .

### مدينة طرابلس :

مدينة بيضاء من الصخر الأبيض على ساحل البحر ، خِصْبَة حصينة كبيرة ، حسنة الشوارع ، ذات ريبض ، مُتَقَنَة الأسواق ، وبها صنّاع مَهْرَة ، وتحتوى على أمتعة مختلفة تُصَدَّر إلى كثير من الجهات ، وكان لها في ريبضها خارج سورها أسواق كبيرة نُقِلَ بعضها إلى داخل السور ، وهي ناحية واسعة الكور كثيرة الضياع ، والبادية ؛ وأهلها قوم مرموقون من بين مَنْ جاورهم بنظافة الأعراض والثياب والأحوال ، متميزون بالتجمل في اللباس ، وحُسْنِ الصورة ، والقصد في المعاش ، ولهم في الخير مذهب من طريق العصبية لا يدانيهم فيه أهل بلد آخر<sup>(8)</sup>

تتمتع مدينة طرابلس بموقع مُمَيِّز بين مشرق المتوسط وغربه ، موقعها جعلها مَمَرًا للجيوش ذهابًا وإيابًا وممر للتجار وقوافلهم والحجاج والعلماء وغيرهم ، كل ذلك أثار على المدينة من النواحي السياسية ، والاقتصادية ، والاجتماعية ، والثقافية ، وجعلها مجال صراع بين الدول المجاورة - الزيرية بالمهديّة ، والفاطمية بمصر - وجعلها في مواجهة الأطماع النورمانية ، وتقاعس الدولتين في مدّ يد العون لأهلها .

ومن ناحية أخرى كان لميناء طرابلس أهمية كبيرة في حركة السفن بين إفريقيا ، وشرق وغرب المتوسط ، حيث كان هناك خطًا تجاريًا يربط بين المهديّة عاصمة الزييين وميناء الإسكندرية ، ولقد تحدث عنه البكري بقوله : " ... ثمّ إلى مرسى مدينة طرابلس ، ومرساها مأمون جيّدًا أولها دار صناعة للأساطيل ... ثم إلى منارة الإسكندرية ..."<sup>(9)</sup> ، فمن الواضح أنّ تجارة المسلمين بين حوضي المتوسط ، كانت تعتمد على ميناء طرابلس في رُسوّ السفن ، ومن الواضح أيضًا أنّ الحملات العسكرية التي تتالت عليه ، كانت تهدف إلى السيطرة على خطوط التجارة البحرية بين حوض المتوسط ، مما جعله عُرْضةً لحملات متعدّدة طوال العصر الوسيط ، وكانت أغلبها من طرف الدّول الغربية التي بعد سيطرتها على صقلية ، كانت تتجه إلى موانئ إفريقيا منذ مدّة .

### محاولات النورمان للسيطرة على طرابلس :

المحاولة الأولى : استقل عامل طرابلس محمد بن خزون بن خليفة ، عن بني زييري الصنهاجين وحدثت بينهم وقائع كثيرة ، فاستغل رجّار الثاني تلك الأوضاع ، وأرسل أسطولًا لمهاجمة المدينة في التاسع من ذي الحجة سنة 537 هـ 1142 - 1143 م ، ولقد وَصَّحَ ابن غلبون مجاريات الحملة بقوله : " فنازلوا البلد ، وقاتلوه ، وعَلَّقُوا الكلاب في سوره ، ونقبوه حتى كادوا يأخذونه ، فلما كان الغد نزل جماعة من العرب نجدة لأهل البلد ، فقوي بهم أهل البلد ، فخرجوا إلى الأسطول ، وحملوا عليهم حملة منكرة ، فانهمزمو هزيمة فاحشة ، وقتل منهم خلق كثير ، ولحق الباقون بالأسطول ، وتركوا الأسلحة ، والأثقال ، والدواب فنهبها العرب ، وأهل البلد ، ورجع الإفرنج إلى صقلية ..."<sup>(10)</sup> .

المحاولة الثانية : فشلت الحملة الأولى في احتلال مدينة طرابلس لحصانة اسوارها ، ودور قبائل الدواخل - التي يبدو أنها كانت على علاقة جيدة مع السلطة المركزية بالمدينة - في الدفاع عنها ، مما دفع رجّار الثاني حاكم صقلية ، إلى إعادة الكره في سنة 539 هـ 1144 م ، ومن الواضح أن هدف الحملة كان إعمال قرصنة من نهب ، وسرقة<sup>(11)</sup> .

بعد ذلك اجتاحت مدينة طرابلس سنة 540 هـ 1145 - 1146 م ، وكذلك سائر مناطق إفريقيا ، مجاعة مهلكة قضت على الكثير من أهلها ، وحملت آخرين على الهجرة خارجها ، وبنفس الوقت حدث انقسام سياسي بين الرافضين لمحمد بن خزون بن خليفة ، وشيعته من بني مطروح<sup>(12)</sup> ، والمتشيعين لهم ، انتهى بانتصار الطرف الأول ، وأخرجوهم من البلاد ، وولوا عليهم رجل غريب ، وعابر سبيل في طريقه لأداء فريضة الحج من المرابطين الملتزمين ، لا نعلم اسمه أو عمله ، في حين أشار إليه ابن الأثير ضمن الرهائن الذين حملهم النورمان إلى صقلية بعد احتلالهم لمدينة طرابلس<sup>(13)</sup> ؛ ربما كان اختياره كمخرج للنزاع القائم بين أهالي

المدينة ، باعتباره رجلاً محايداً ، ولفترة مؤقتة حتى يستطيعوا الاستعداد لمواجهة الخطر الخارجي القادم من البحر .

### احتلال مدينة طرابلس :

استغل رجّار الثاني الأحداث التي وقعت بالمدينة ، وأرسل أسطول يتكون من مائتي سفينة بقيادة جورج بن ميخائيل الإنطاكي سنة 541 هـ 1146 م لاحتلالها ، فأحاط رجاله بمدينة طرابلس برّاً ، وبحراً ، في حين دافع عنها أهلها لمدة ثلاثة أيام متتالية ، إلا أن الأوضاع تغيّرت عندما اجتمعت جماعة من مؤيدي يحيى بن مطروح ، وأعادوا تنظيم أنفسهم ودخلوا إلى المدينة ، فتصدى لهم أهلها ووقعت بينهم معركة جعلت الأسوار بدون حماية تُذكر ، فشرع الإفرنج بأمرهم ، وبادروا إلى وضع السلالم على الأسوار ، ودخلوا المدينة عنوة ؛ وهنا يمكننا أن نتساءل هل أن بني مطروح لم يساعدوا إلى حدٍ ما النصارى على تحقيق الانتصار ؟ لأن التخلي عن الأسوار يبدو أمراً غريباً .

تعرضت مدينة طرابلس إلى النهب ، والسلب ، وأهلها إلى القتل ، والأسر ، ومن نجى منهم غادرها إلى المناطق المجاورة<sup>(14)</sup> ؛ غير أنّ التيجاني لم يُشر إلى نهب المدينة ، بل أكد أنّ جرجي " ... قد أحسن إلى أهلها ، لما أضمره من تملك غيرها من البلاد الإسلامية ..."<sup>(15)</sup> ؛ بينما أشار ابن الأثير إلى العفو العام الذي أعلن عنه بُعيد احتلال المدينة حيث رفع النورمان السيف ونادوا بعدها بالأمان فرجع السكان إلى منازلهم " ... وأقام الإفرنج ستة أشهر حتى حصّنوا أسوارها وحفروا خندقها ، ولما عادوا أخذوا رهائن أهلها ، ومعهم بني مطروح ، والملثم ( الوالي المرابطي السابق ) ، ثم أعادوا رهائنهم ، وولوا عليهم رجلاً من بني مطروح ، وتركوا رهائنه وحده ، واستقامت أمور المدينة وألزم أهل صقلية والروم بالسفر إليها فانعمرت سريعاً ..."<sup>(16)</sup> .

### أوضاع المدينة تحت الاحتلال :

رتب القائد جرجي بن ميخائيل الإنطاكي ، أمور المدينة الإدارية فأصلح سورها ، وحفر خندقها ، وعزّز استحكاماتها ، وعين نسبة من المال يقوم السكان بدفعها كجزية لحكومة صقلية ، فضلاً عن وجود حامية نورمانية ، وعهد بولاية طرابلس إلى أبا يحيى رافع بن مطروح التميمي<sup>(17)</sup> ، كما وضع أبو الحجاج يوسف بن زييري - صاحب التأليف المعروف بالكافي في الوثائق - على قضائها ، ثم غادرها إلى صقلية بعد أن أخذ عدداً من الرهائن كان من بينهم الأمير اللمتوني ، وعدد من بني مطروح وآخرون ، تاركاً أحكام المسلمين كلهم في يدي واليهم وقاضيهم<sup>(18)</sup> .

دامت تبعية طرابلس لصقلية ما يقرب من ثلاثة عشر عامًا ( 541 - 553 هـ 1146 - 1158 م ) ، تولى تصريف الأمور خلالها واليها أبو يحيى رافع بن مطروح التميمي ، وهنا تسكت المصادر عن ذكر فترة السيطرة النورمانية على طرابلس وما حولها ، ولكن من المرجح أن ابن مطروح لم يكن بمقدوره تهديد المصالح الصقلية في طرابلس ، نظرًا لوجود حامية بها ، فضلًا عن وجود حاميات أخرى في الموانئ القريبة منها هذا من ناحية ، وأنه لا ينسى فضلهم في وضعه واليًا على المدينة من ناحية أخرى ؛ ولم تكن هناك قوة إسلامية قريبة يستعين بها على حماية طرابلس من العربان المجاورين لها فيما لو أقدم على طرد الحامية الصقلية ؛ وعلى أية حال حاول ابن مطروح ، وقاضيه ، التوجه إلى الداخل لتحسين أحوال الناس المعيشية بالمدينة ، ولهذا شجّع النشاط الاقتصادي ، ولاسيما التجارة البحرية مستغلًا الظروف العامة التي مرّت بها المنطقة حيث كانت تشكو حالة من القحط والغلاء ، فازدهرت طرابلس وأصبحت مركزًا تجاريًا مهمًا<sup>(19)</sup> .

كما أقام مجلس شورى مُكوّنًا من عشرة رجال من شيوخ البلد " كانوا يجتمعون في مسجد العشرة للمشورة فيديرون أمر البلد ، وذلك قبل تملك الموحدين لها فلما تملكوها ارتفع ذلك الرسم ، وزال عن المسجد ذلك الاسم ..."<sup>(20)</sup> .

ويبدو أن حكومة صقلية ارتاحت لولاء طرابلس واستقرار الأمور فيها ، فردّت لها رهائنها ، وشجع رجّار الثاني الهجرة إلى طرابلس فهاجر إليها عدد من المستثمرين الذين مُنحوا مساكن وأراضي زراعية ، وقروضًا مالية من أجل الاستيطان بها ، مما أسهم في إصلاح حالها ، وانتعاش اقتصادها<sup>(21)</sup> .

لعل ذلك النظام شبه الاستقلالي كان يشبه النظام المعمول به في بعض المدن الإيطالية وفي صقلية بالذات بعد استيلاء النورمان عليها ، وكان لابدّ لاحتلال طرابلس أن يؤثر تأثيرًا طيبًا في تطور التجارة الصقلية ، ويبدو أنّ المدينة لم تُتأثر أي صعوبة في وجه حكامها الجدد ، خلال ما يقرب من ثلاثة عشر سنة الموالية<sup>(22)</sup> .

سيطر النورمان على السواحل الممتدة من طرابلس إلى ضواحي مدينة تونس ، فهل يعني ذلك أن نفوذهم كان ضعيفًا داخل البلاد ؟ لقد أكّد ابن الأثير أن الإفرنج أصبحوا يسيطرون على بلاد المغرب " ... من طرابلس الغرب إلى قريب تونس ، ومن المغرب إلى دون القيروان ..."<sup>(23)</sup> ، دون الإشارة إلى امتداد سيطرتهم إلى الدواخل ، ولكن القيرواني ذكر بأن جرجي الأنطاكي بعد استيلائه على المهديّة " ... جاءته وفود العرب وأكابرهم فدخلوا في طاعته ...."<sup>(24)</sup> ، فهل قبل أهل البلاد بطبيّة خاطر ، الخضوع للنصارى الذين

أظهروا احترامًا لحرّياتهم الدينيّة ، والقضائيّة ، والإدارية ، أم أنهم انتفعوا من التطّور الذي كانت تشهده المبادلات التجارية بين صقلية ، وإفريقية ؟ .

لا شك أنّ المعاملات التجارية مع بلاد السودان عن طريق طرابلس قد اتّسع نطاقها ، كما أنّ إلغاء نظام ملوك الطوائف ، وإبطال المراقبة التي كانوا يقومون بها على المبادلات التجاريّة ، مقابل أجر ، قد ساهما بلا شك في تخفيض بعض المعالم الجمركية بل حتى حذفها كليًا أو جزئيًا ، ولئن كان من الطبيعي أن يدفع السكان الجزية ، والخراج ، إلاّ أنهم لم يكونوا مستغلين ، بالعكس من ذلك يبدو أنّ الجباية كانت متسمة بالمرونة ، وحريصة على كسب ودّ الخاضعين للضريبة ، إن صحّ التعبير ، وفي هذا المعنى ذكر ابن أبي دينار عن جرجي الأنطاكي " ... إنّه جبي خراج الرعايا برفق منه ، وإحسان ، واستمالة النّاس ، وسار فيهم سيرة حسنة بالرفق بهم ... " (25) ؛ ولا شك أن هذه السياسة التحرّرية الجزئية ، بالنسبة إلى ذلك العصر ، تفسّر لماذا لم تحاول إفريقيّة الواقعة تحت الاحتلال النورماني ، طوال اثنتي عشرة سنة التخلّص من حكمهم (26)

ولكن بعد موت رجّار سنة 548 هـ 1153 م ، خلفه ابنه غليوم الأول الذي كان " فاسد التدبير " على حدّ تعبير ابن الأثير حتى لُقّب بالفاسد ، وفي عهد وزيره أمير البحر ماجون الباري شهدت صقلية فترات صعبة ؛ ولا شك أنّ الاضطرابات التي وجدت في جنوب إيطاليا حوالي سنتي 1155 - 1156 م قد كانت لها انعكاساتها بإفريقية (27) ، ولقد أكّد ابن خلدون على أن سياسة النصارى قد تبدلت وأخذوا في اضطهاد المسلمين ، حيث أقلعوا عن سياسة رُجار المتسمة بالمرونة والعدل والتسامح ، وأخذوا في استغلال المسلمين واضطهادهم ، كما أصبحوا يتدخّلون في الشؤون الدينيّة بعدما كانوا يتحاشون ذلك من قبل (28) ؛ وفي تلك الأثناء كانت دولة الموحيدين قد سيطرت على المغربين الأقصى والأوسط ، وتتأهّب لدخول إفريقية مما شجع أهلها على التخلص من الحكم النورماني ، فأعلنت مدينة صفاقس سنة 551 هـ 1156 م الثورة ، ومن بعدها جزيرتي جربة وقرقنة سنة 552 هـ 1157 م ، ومنها انتشرت باتجاه طرابلس (29) .

### الثورة ضد النورمان ، وتحرير طرابلس :

يُرجع بعض المؤرخين السبب المباشر لثورة أهالي طرابلس ضد التواجد النورماني بها ، إلى أنهم رأوا - أي النورمان - بدأ تغلب الدولة الموحدية على بلاد المغرب الأقصى وصولًا إلى المغرب الأوسط ، ما يهدد مصالحهم ، وسيطرتهم على مناطق ببلاد إفريقية ، فحاولوا خلق نوعًا من الجفاء بين الطرابلسيين ، والموحيدين - رغم أنهم لم يتعرّضوا لأيّ عمل عدواني ضدهم - فطلبوا من أئمة المساجد بطرابلس أن يذموا الموحيدين على المناير ، ويستثيروا كراهية الناس لهم ، فاجتمع الناس إلى قاضيهم أبو الحجاج ، وأوضحوا إن هذا الأمر خطير



، ولا يستطيعون تحمله ، فذهب القاضي إلى قائد الحامية ، وأوصله رسالة أهلها ، وأنهى حديثه بأن موقف أهل المدينة في ذم الموحدين أمر يخالف الدين " فإن رضوا منهم بهذا ، وإلاّ سلموا لهم البلد ، وخرجوا عنهم فأعفاهم النصراني من ذلك ..."(30) .

وبعد ما يزيد عن اثني عشر عامًا من الاحتلال النورماني لمدينة طرابلس وفي سنة 553 هـ 1158 م قرر الأهالي الثورة ، وقاموا بوضع الحبال ، والخشب في الطرقات لعرقلة خيل النورمان في الجري ، ولما سمعت الحامية بالثورة تحركت لمعالجة الموقف ، ولكن خيولهم تعثرت بالحبال والخشب فقبضوا عليهم الأهالي ، وقتلوه ، وأحرقت بيوتهم ، وبقي أبو يحيى بن مطروح سيد الموقف ، واستطاع استمالة الأعراب المحيطين بالمدينة ، وتمكن بمساعدتهم من تحرير مدينة طرابلس ، وبقي يحكمها حتى وصول عبد المؤمن بن علي إلى المهديّة وتحريرها سنة 553 هـ 1158 م ، حيث جاءته الوفود من سائر بلاد إفريقية ، ومنها وفد طرابلس ، وشيخها ابن مطروح ، فبايعوا عبد المؤمن وقدمه على أهل بلده كما يذكر التيجاني(31) .

### النتائج :

- رغبة النورمان في التوسع نحو شواطئ إفريقية والسيطرة عليها ، شجعتها الظروف العامة التي كانت بها ، وضعف الدولة الزيرية ، وانهايار الأوضاع الاقتصادية .
- مدينة طرابلس كانت مُحَصَّنَة بشكل جيد لدرجة أن العدو لم يستطع دخولها إلا بعد انشغال أهلها بخلافاتهم فيما بينهم ، مما أدى إلى تعثر واضح في الدفاع عنها فسهل دخول النورمان إليها ، ومما يثبت حصانة المدينة فشل النورمان في دخولها في سنة 537 هـ ، وكذلك سنة 539 هـ .
- وقعت طرابلس بيد النورمان نتيجة الخلافات والصراعات الداخلية على السلطة ، ولو كان ذلك على حساب الوطن والدين ، ويتضح أن المدينة تعرضت إلى الخراب والدمار ، بدليل أن النورمان استغرقوا ستة أشهر في إصلاح أسوارها ، وخنادقها ، ويبدو كذلك أن وضع طرابلس لم يكن مستقرًا في بداية الاحتلال ، لهذا أقدم النورمان على أخذ رهائن من أهلها ، ولم يتم إرجاعهم إلا بعد استقرار الأوضاع بالمدينة .
- تملك النورمان معظم الثغور بإفريقية ، فأصبحت البلاد مقسمة بين النورمان على السواحل ومشيخات الأعراب في الدواخل ، مما أثر بشكل كبير على الوحدة السياسية بها ، حتى قدوم الموحدين وسيطرتهم عليها .

## الهوامش :

- <sup>1</sup> ( أحمد عزيز : تاريخ صقلية الإسلامية ، ترجمة أمين توفيق الطيبي ، الدار العربية للكتاب ، ليبيا - تونس ، 1980 م ، ص 57 - 72 .
- <sup>2</sup> ( المرجع نفسه ، ص 43 - 44 ؛ الطيبي ، أمين توفيق : دراسات وبحوث في تاريخ المغرب والأندلس ، الدار العربية للكتاب ، ليبيا - تونس ، 1984 م ، ص 45 . ولقد انقسمت البلاد إلى دويلات محلية منها : بني خراسان بتونس ، وبني الرند بقفصة ، وبني الورد بينزرت ، وبني جامع بقابس ، وقد أحصى ابن خلدون عددا كبيرا آخر من الرؤساء الذين أنشئوا إمارات عابرة في كل من باجة مثلاً ، وطبرية ، والكاف ، والأربس ، وزغوان ، وغيرها من المدن الداخلية . ابن خلدون : عبد الرحمن بن محمد ، تاريخ ابن خلدون ، بيروت ، 1979 م ، 6 / 158 - 170 .
- <sup>3</sup> ( البرغوثي : عبد الطيف محمود : تاريخ ليبيا الإسلامي من الفتح الإسلامي حتى بداية العصر العثماني ، منشورات الجامعة الليبية ، دار صادر ، بيروت ، 1972 م ، ص 362 .
- <sup>4</sup> ( أحمد عزيز : المرجع السابق ، ص 65 .
- <sup>5</sup> ( كان نصرانياً من مدينة أنطاكية ببلاد الشام حيث ولد ونشأ وتعلم ، قدم إفريقية في ولاية تميم بن المعز الصنهاجي ، وأصبح أحد رجاله إلى حين وفاته فلحق برجّار ونال الحظوة لديه حتى أصبح قائداً لأسطوله . ابن خلدون : المصدر السابق ، 6 / 168 .
- <sup>6</sup> ( القيرواني ، محمد بن أبي القاسم الرعيني المعروف بابن أبي دينار : المؤنس في أخبار إفريقية وتونس ، دار المسيرة ، بيروت ، 1993 م ، ص 113 - 114 .
- <sup>7</sup> ( الهادي روجي إدريس : الدولة الصنهاجية تاريخ إفريقية في عهد بني زيري من القرن 10 إلى القرن 12 م ، ترجمة حمادي الساحلي ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، 1992 م ، 1 / 358 - 397 .
- <sup>8</sup> ( ابن حوقل : صورة الأرض ، ضمن ليبيا في كتب الجغرافية والرحلات ، ص 21 - 25 .
- <sup>9</sup> ( البكري : أبو عبيد : المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب وهو جزء من كتاب المسالك والممالك ، مكتبة المثني ، بغداد ، 1867 م ، ص 182 .
- <sup>10</sup> ( ابن غلبون أبو عبد الله محمد بن خليل : التنكار فيمن ملك طرابلس وما كان بها من الأخبار ، تحقيق الطاهر الزاوي ، القاهرة ، 1349 هـ ، ص 51 .
- <sup>11</sup> ( ابن الأثير ، عز الدين أبو الحسن علي بن أبي كرم ، الكامل في التاريخ ، دار صادر ، بيروت ، د . ت ، 11 / 100 .
- <sup>12</sup> ( أسرة بني مطروح كانت قريبة من بني خزرون ، وأخذت بالعمل السياسي إلى جانب محمد بن خزرون ، واستطاعت أن تسيطر على الأمور بالمدينة مستغلة ضعف بني خزرون ، وإزاحتهم وصاروا هم حكام طرابلس

- . الانصاري : أحمد بك النائب : المنهل العذب في تاريخ طرابلس الغرب ، مكتبة الفرجاني ، طرابلس ، د .  
ت ، ص 137 .
- <sup>13</sup> ( ابن الأثير ، المصدر السابق ، 11 / 108 - 109 .
- <sup>14</sup> ( المصدر نفسه ، 11 / 108 ؛ البرغوثي : المرجع السابق ، ص 364 .
- <sup>15</sup> ( التيجاني : أبو محمد عبد الله بن محمد : رحلة التيجاني ، دار الفرجاني ، د . ت ، ص 241 .
- <sup>16</sup> ( ابن الأثير : المصدر السابق ، 11 / 108 - 109 .
- <sup>17</sup> ( الانصاري : المصدر السابق ، ص 137 .
- <sup>18</sup> ( التيجاني : المصدر السابق ، ص 242 .
- <sup>19</sup> ( البرغوثي : المرجع السابق ، ص 365 .
- <sup>20</sup> ( التيجاني : المصدر السابق ، ص 273 .
- <sup>21</sup> ( إحسان عباس : تاريخ ليبيا منذ الفتح العربي حتى مطلع القرن التاسع الهجري ، دار ليبيا للنشر والتوزيع ، بنغازي ، 1967 م ، ص 176 .
- <sup>22</sup> ( الهادي روجي إدريس : المرجع السابق ، ص 412 .
- <sup>23</sup> ( الكامل ، 11 / 58 .
- <sup>24</sup> ( المؤنس ، ص 115 .
- <sup>25</sup> ( المصدر نفسه ، ص 116 .
- <sup>26</sup> ( الهادي روجي إدريس : المرجع السابق ، 1 / 420 - 421 .
- <sup>27</sup> ( المرجع نفسه ، 1 / 442 .
- <sup>28</sup> ( تاريخ ، 7 / 44 .
- <sup>29</sup> ( البرغوثي : المرجع السابق ، ص 366 .
- <sup>30</sup> ( التيجاني : المصدر السابق ، ص 242 .
- <sup>31</sup> ( المصدر نفسه : ص 242 - 243 .

#### القائمة البيبليوغرافية :

#### المصادر :

- ابن الأثير : عز الدين أبو الحسن علي بن أبي كرم ، الكامل في التاريخ ، دار صادر ، بيروت ، د .  
ت .

- الأنصاري : أحمد بك النائب : المنهل العذب في تاريخ طرابلس الغرب ، مكتبة الفرجاني ، طرابلس ، د . ت .
- البكري : أبو عبيد : المغرب في ذكر بلاد افريقية والمغرب وهو جزء من كتاب المسالك والممالك ، مكتبة المثني ، بغداد ، 1867 م .
- التيجاني : أبو محمد عبد الله بن محمد : رحلة التيجاني ، دار الفرجاني ، طرابلس ، د . ت .
- ابن حوقل : صورة الأرض ، ضمن ليبيا في كتب الرحلات والجغرافية ، تحقيق إحسان عباس ومحمد نجم ، بنغازي ، 1968 م .
- ابن خلدون : عبد الرحمن بن محمد ، تاريخ ابن خلدون ، بيروت ، 1979 م
- ابن غلبون أبو عبد الله محمد بن خليل : التذكار فيمن ملك طرابلس وما كان بها من الأخبار ، تحقيق الطاهر الزاوي ، القاهرة ، 1349 هـ .
- القيرواني : محمد بن أبي القاسم الرعيني المعروف بابن أبي دينار : المؤنس في أخبار إفريقية وتونس ، دار المسيرة ، بيروت ، 1993 م .

#### المراجع :

- إحسان عباس : تاريخ ليبيا منذ الفتح العربي حتى مطلع القرن التاسع الهجري ، دار ليبيا للنشر والتوزيع ، بنغازي ، 1967 م .
- أحمد عزيز : تاريخ صقلية الإسلامية ، ترجمة أمين توفيق الطيبي ، دار العربية للكتاب ، ليبيا - تونس ، 1980 م .
- البرغوثي : عبد الطيف محمود : تاريخ ليبيا الإسلامي من الفتح الإسلامي حتى بداية العصر العثماني ، منشورات الجامعة الليبية ، دار صادر ، بيروت ، 1972 م .
- الطيبي ، أمين توفيق : دراسات وبحوث في تاريخ المغرب والأندلس ، دار العربية للكتاب ، ليبيا - تونس ، 1984 م .
- الهادي روجي إدريس : الدولة الصنهاجية تاريخ إفريقية في عهد بني زيري من القرن 10 إلى القرن 12 م ، ترجمة حمادي الساحلي ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، 1992 م .